

هذا من هذه!

د. جهاد نعمان

أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه

طُرحت دارُ من الدور القديمة الفخمة في المِزاد العلني وكنت صبيًا في العاشرة أرقب المزايدة. كان بين المزايدين رجل ربعة متقدّم في السن يلفّ جسمه النحيل سروال وصدرة، وفي قدميه نعل لا يستر منهما سوى النصف الأمامي، ولا جوارب ولا من يحزنون، والجو شتاء. فراح المزايدون يتهايمسون ويتغامزون وينظرون اليه نظرات استغراب واستهزاء. أما هو فلم يكثر ولم يحسب لأحد حساباً وظل ثابتاً في مكانه بينهم. وأعلنت نتيجة المِزاد فكان ذلك الرجل، كلما زاد اأدهم خمسين ليرة عثمانية ذهباً زاد مئة غير متردد ولا وجل، وظلّ يزيد ويزيد حتى رست عليه المزايدة بالفني عثمانية، واستولت الحيرة والذهول على جمهرة المزايدين وجميعهم من كبار الأثرياء المشهود لهم في العاصمة.

وهنا اقترب اصحاب الدار من الرجل الغريب في سربهم وهم غير مصدقين اعينهم واسماعهم فبادرهم ، والابتسامه الرضيه على شفثيه : تعالوا معي غير بعيد فانقدكم الثمن. قال وسار، فسار واره اصحاب الدار و المزايدون أيضًا ليطلعوا على حقيقة امر هذا الرجل الزري المظهر الذي نكس رؤوسهم وكشفهم على حقيقتهم. مشى ومشوا يجتازون من زقاق ضيق الى زقاق أضيق وأحياناً يتعثرون بالحجارة والحفر ويتذمرون. أما هو فكان ثابت القدمين لا يتعثّر ولا يتذمّر. وماعتم الرجل حتى وقف امام باب حديدي قرعه ففتّج، وتابع في ممر من الرخام الى باب خشبي يزينه الحفر الفني الرائع فقرعه. فاطلت الخادم من عينٍ سحرية اشبه بكوة صغيرة ترى منها ولا تُرى. فُتِح الباب على مصراعيه وتوارت الخادم. فخلع الرجل نعليه ودخل فتبعه مرافقوه وهم لا يصدقون ما يشاهدون: سجاد تبريزي كاشاني يكسو الأرض والجدر حتى السقوف، ثريات من الكريستال الفاخر تزيّن الدار وتضفي عليها روعة اخاذة ، طنافس مطرزة منثورة هنا وهناك على الكنبات والمقاعد المطعمة بالفسيفساء الشرقية المنمقة تنميقاً مدهشاً، بحيث شعر الجميع انهم انتقلوا من قصر الى قصر. وبلغ الرجل غرفته الخاصة فإذا هي لا تقل فخامة وروعة عن ردهة الاستقبال وسائر الغرف التي مرّوا بها. وهنا جثا على ركبتيه وسحب، في مشقة ، من تحت كنية ، تنكة نصفية اشبه بتنكات الغاز، وفتحها وقال: اليكم هذا الألف الأول، تفضلوا وعدّوا. ولما فرغ اصحاب الدار المبيعة من عدّ العثمانيات الألف، سحب أبو السروال نصفية ثانية فيها الألف الثاني. وامام العيون المحمقة والوجوه الذاهلة المصفرة كشف ستائر الكنية وإذا بها مرصوفة رصفاً بتنكات الأصفر الرنان. وهنا قطع الصمت والوجوم المستحويين على جمهور الحاضرين احد المزايدين فسأل الرجل الثري: أمناً وصدقنا انك ثري كبير، ولكن، هل لك ان تقول لنا كيف حصلت عل كل هذا المال. قال، فتفرّس الرجل في من حوله ونظر في حنان لا مزيد عليه، الى قدرٍ لطهي الفول عرضها في صدر الغرفة وقد حولها الى حوض من الورود العطرة، وأشار الى المال وقال، في نبيرة تحدّر كمن ينتقم لنفسه ممن استهانوا به واستهزأوا : هذا من هذه !.